لحظات الاحتضار
بين حَيرةِ المتكلمين.. ويقينِ العجائز

١/ ٤/ ١٤٣٦هـ

شيّعْنا في الأسبوع الماضي امرأةً تجمعني بها آصرةٌ من قرابة ومصاهرة، وليست هذه المقالة في الحديث عنها -مع أنها تستحق رَحِمَهَا اللَّهُ- لكنه حديثٌ ينطلق من بعض مواقفها؛ ليعبِّر عن نموذجٍ يتكرر في أترابها من كبار السنِّ رجالًا ونساءً.

عُمِّرَتِ المرأةُ المذكورة نحو مئةِ عام، وفي أواخر حياتها اعتراها ما يعتري كبيرَ السنّ مِن ضعف، فكانت تسمع من أبنائها الدعاءَ المعتاد بطول العُمُر، ونحو ذلك، فكانت تقول: «يكفي ما عِشْنا... لقد اشتقتُ للموت»! وتُتَمْتِم بكلماتٍ تُشعِرك بالشوق للقاء الله.

هذه التمتمات المعبِّرة عن الشوق للموت، ظهرتْ جليًّا وبوضوح عند نزول الموت -كما حدّثني ابنُها- فإنها لما ضَعُف تنفّسها في الساعات الأخيرة، وأرادوا الذهاب بها إلى المستشفى؛ كانت تردد هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[الجمعة: ٨]، فلما نزل بها الموتُ، لم تزِد على أن قالت: «هلا بالله.. هلا بالله.. هلا بالله! أشهد أن البعثَ حقٌّ»، ثم فاضت روحُها رَحِمَهَا اللَّهُ!

إنها لحظات لا يمكن التمثيل فيها أبدًا، بل المتحدّث الرئيس فيها هو القلبُ الذي كان يعيش أجملَ لحظاته، وهو يُدْبِرُ عن هذه الحياة المنغِّصة؛ ليُقبِل على فواتح الرحمة الإلهية، نقولها إحسانًا منّا للظنّ بالرب الكريم الذي كانت تعبدُه هذه المرأة، وأمثالها من المؤمنين الموقنين بل المشتاقين للقاء الله.

يحدّثني ابنُها أنها في تلك الليلة -التي فاضت فيها روحُها قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف ليلًا- قرأتْ بعـد المغرب الأذكارَ كاملةً، ومنها: سـيد الاسـتغفار، الذي قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كلـمات هذا الدعاء العظيـم: «**مَن قاله من النهار موقنًا به، فماتَ من يومِه قبلَ أن يُمْسيَ؛ فهو مـن أهلِ الجنةِ، ومَنْ قالَه من الليلِ وهو موقـنٌ به، فماتَ قبلَ أن يُصبِحَ؛ فهوَ منْ أهلِ الجنَّةِ**»[1].

هذا النوع من كبار السـنّ، لم يدخلوا يومًا مدرسةً يتعلمون فيها، وما جلسـوا بين يَدَي معلّمٍ في الكتاتيب، لكنّهم رضعـوا معاني اليقين عبر كلماتٍ يسيرة تلقّوها في صِغَرهم من والديهم، وافقت فطرةً نقيّة لم تتلوث بشيءٍ من نواقض الفطرة ونواقصها، ولا عبثِ الفكر، بل كانت حياتهم عامرةً بحب الله ورسـوله، والقيامِ بأنواعٍ مِن العباداتِ البدنية واللسانية والماليـة، التي يُرى أثرُها في بوارِق السرور الذي لا تُخطئه العينُ والأذن، سواءٌ في فلتات اللسان، أو على صفحاتِ الوجه، على الرغم من المصائبِ التي تمرّ، والمنغصات التي لا تخلو منها هذه الحياة.

لقد طاف بي طائـفٌ -وابنها يحدثني عن خاتمة أمّـه، التي لها نظائر كثيرة- من أخبار العلماء الذين خاضوا في علوم الفلسـفة والكلام، ممن

(١) رواه البخاري (رقم٦٣٠٦).

عاشـــوا لحظاتِ الوداع الدنيوي، وختامَ المطـــاف في هذه الحياة، وكيف اتفقتْ كلماتُهم على الحيرة، والقلق، والرغبةِ في الموت على دِين العجائز، الذي لم يتلوث بهذه العلوم التي عَظُم ضرَرُها.

هذا أبـــو المعالي الجويني يقـــول في آخر حياته: «لقـــد خضتُ البحرَ الخِضَمَّ، وخلّيت أهلَ الإســـلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته؛ فالويـــل لابن الجويني! وها أنا أموت على عقيدة أمي، ويُروَى أنه قال: على عقيدة عجائز نيسابور». وقال مرةً لأصحابه: «لا تشـــتغلوا بالكلام، فلو أني عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به»[1].

وهذا الفخر الرازي يقول -بعد صولات وجولات في علم الكلام-: «مَن التزم دِين العجائز فهو الفائز»[2].

واليـــوم تَعود المطالبةُ لســـلوك طريقةِ هؤلاء -الذيـــن جرّبوا مَرارةَ البعدِ عن العلومِ الصحيحة- لكن باســـم الحرية الفكرية، والاستقلال في النظر، والاطلاعِ المطلق على تراثِ الآخرين، دون تمييزٍ أو تمحيصٍ، أو تفريقٍ بين قادرٍ على التمييز مِن غيره!

وإنّ أولَ مَن ســـيكتوي بنارِ هذه الدعـــوى المطلقة والمجرّدة من كل قيْد: هم الداعون أنفســـهم -إن لم يتداركهـــم الله برحمته!- فهل يريدون تكرار تجربة الجويني أو الرازي؟! أخشـــى أن يموتوا قبل أن يَستدركوا!

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣)، و(بيان التلبيس) كلاهما لابن تيمية (١/ ٤٠٧).
(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٢٧).

فضلًا على تحمّلِهم أوزارَ مَن ضَلوا، أو شــكّوا في محكماتِ دِينهم بسبب دعواتهم غير المنضبطة..!

فاللهم، موتًا على الإســلام والسنة، موتًا يمتلئ القلبُ معه شوقًا إلى لقائك يا أرحم الراحمين.